المناسب ، والجماعات غير قادرة على فهم أغراض الزعماء الأعالى ، وما على الزعيم من بأس فى ترفعه عن عرض أعماله على الجماعات لأنها تفضل الطاعة وتؤثر الانقياد ، ومثل هذا النظام يمحو الحرية والمساواة والتمثيل والنيابة ويرفع التبعة عن كاهل الحكام والزعماء ، وتثبيت مركز الزعيم يقتضى الأخذ بنظرية « الحزب الواحد » كما فى ايطاليا وألمانيا وروسيا ، ففى إيطاليا مثلا يزعم موسولينى أن إيطاليا هى الحزب الفاشى ، وموسولينى هو زعيم الحزب الفاشى فهو إذن سيد إيطاليا غير منازع وقس على ذلك سائر الديكتاتوريات .

الفلسفة الماركسية

الشيوعية مذهب فى الاقتصاد ، وخطة فى السياسة ، وعقيدة فلسفية تدين بها فى العصر الحاضر دولة عتيدة كثيرة السكان مترامية الأطراف ، وتحاول تثبيت قواعدها وبسط سلطانها ، ولا معدى لنا إذا حاولنا أن نتعرف طبيعة العصر الحاضر ، ونلم بمشكلاته البارزة ، وسياساته المتعارضة من أن نختبر فى نزاهة ودقة تعاليمها ودعاويها واتجاهاتها ووعودها ، وقد يتراءى للبعض

أن الكتابة عنها تزيدها انتشاراً وتأييداً ، ولكنى لا أرى صواب هذا الرأى ، ولو جارينا القائلين به لأمسكنا عن دراسة الكثير من مسائل الفكر ومذاهب الفلسفة ، وفى الشيوعية كما فى سائر المذاهب الفلسفية جوانب صادقة وبها كذلك جوانب من النقص والزيف والباطل ، وبين دعاتها رجال خلقوا من طينة البطولة ، واحتملوا فى سبيل عقيدتهم ألم التشريد والنفى ، وغضاضة الحاجة ومرارة الحرمان ، ولكن أصدق الناس إخلاصاً ، وأصفاهم نية قد يقع فى الخطأ ويتصور المحال ، وكثير من الآراء التى شقيت من جرائها الإنسانية لم تصدر عن أشرار الناس وإنما أذاعها قوم لا سبيل إلى الشك فى صدق سريرتهم ، والشيوعية ترى قلب النظام الاجتماعى وترى الحالة الحاضرة ظالمة فتاكة ، وأنها ستفضى بالعالم إلى الفوضى وتؤدى به إلى الخراب والدمار ، فهى إذن أمر خطير يستوجب التروية وإنعام النظر . وليس من الحق أن نفرض ضرورة بقاء النظام الحالى وامتناعه على التغيير فالتاريخ كله حركة تحول مستمرة ، ولكنه فى نفس الوقت ليس سلسلة انقلابات مفاجئة وثورات طارئة ، وإنما هو حركة تطور تندر فيها الثورة .

والشيوعية مثل الفاشية تحاول التوفيق بين السياسة والأخلاق ،

وهى تتضمن تفسيراً خاصاً للحياة وطبيعة الوجود ونظرية للمعرفة وفلسفة للتاريخ .

والشيوعية من حيث هى نظرية متماسكة ومذهب فلسفى كان يطلق عليها فى أول أمرها اسم « المادية الجدلية » وتشير هذه التسمية إلى تفرعها من فلسفة هجل ، ويذهب هجل إلى أن تقدم الفكر وسائر الأشياء إنما ينشأ من الصراع بين العناصر المختلفة المتناقضة ، ولنظريته جانبان ، فهى من جانب تصف الطريق الذى اجتازته الأشياء إلى الوجود ، ومن جانب آخر تصف السبيل الذى ينبغى سلوكه إذا أردنا الخلوص إلى حقائق الأشياء ، ويرى هجل أن العمليتين : عملية تقدم الأشياء ونمائها ، وعملية الاهتداء إلى الحق ، يكونان جانبين مختلفين للحقيقة الواحدة ، وكارل ماركس يرى أسبقية الجانب الأول ، ولكن هجل يعزو الأسبقية إلى الجانب الثانى ، وكل نزعة من النزعات فى إبان انتصارها تعمل على خلق نزعة معادية لها ، ولا تزال هذه النزعة الجديدة تشتد وتقوى حتى تتغلب عليها وتجليها عن الميدان . ومن أمثلة ذلك النزعة الفردية فى القرن التاسع عشر ، فقد بلغت القمة ، وأوفت على الكمال ، ولكن انتصارها الباهر كان مدعاة

إلى خلق النزعة الاجتماعية التى قاومتها وقضت على نفوذها .

وكان هجل يعتقد أن القوة الدافعة فى هذه العملية قوة فكرية صرفة ، ولكن ماركس أنكر عليه ذلك ، لأنه بماديته الصميمة كان يرى أن الأفكار إن لم تكن أفكاراً صادرة عن عقول خاصة فهى أوهام عديمة القيمة ، وكان يستمسك بالنظرية المادية التى ترى أن الأفكار نفسها تتكون من تأثير البيئة وانعكاساتها ، والأفكار التى تقوم بالعقل إنما منشؤها الأحداث والحركات التى تعرض فى العالم خارج العقل ، فكوائن العالم العضوى هى التى تخلق الحوادث فى عقل الإنسان ، ومن ثم تحتم الحركة التى نسميها « التاريخ » وعقل الإنسان جزء من هذه الحركة ، ولكنه ليس هو المبتكر لها .

ويمزج ماركس المذهب المادى بطريقة هجل الجدلية ، ويستخرج من هذا المزيج تفسيره للتاريخ وتعليله لحوادثه وملخص نظريته إن الحوادث تنشأ من الصراع بين النزعات المتباينة ، ويمكننا أن نصل إلى لباب التاريخ بتفهم النزعتين المتصارعتين ، وكما أننا إذا اقتفينا فى عالم الفكر أثر نزعة من النزعات فلا مفر لنا من الانتهاء إلى نقيضها ، فكذلك فى عالم الواقع

يقتضى نجاح نزعة من النزعات ظهور النزعة المناوئة لها . فنظام الإقطاع مهد السبيل لظهور الرأسمالية ، والنظام الرأسمالى يوحى إلى الطبقات الفقيرة الشعور بالتفاوت بين الطبقات ، وبذلك يطبع السلاح الذى يحارب به ، أو يملى للقوة التى تقضى عليه . والقوة الدافعة وراء العملية الجدلية — فى زعم ماركس — ليست عقلية وإنما هى حادثة طبيعية مادية ، وليست إرادات الناس ولا أفكارهم هى التى تغير وجه التاريخ ، وتهيمن على اتجاهاته ، وإنما هى الفواعل الطبيعية ، وتكشّف المواد الخام ، ومبتكرات الصناعة ، ولما كانت فكرة الاختراعات وتأثيرها البعيد فى الفنون والصناعات قد تظهر قوة الفكر الإنسانى فى توجيه الحوادث وصياغة التاريخ لذلك عنى ماركس بأن يوضح أن الاختراعات لا تثب من عقل المبتكر تامة التكوين ناهضة الجناح ، وأن ما يبتكره الناس فى الواقع لا يبتكرونه من تلقاء أنفسهم وبتفكيرهم الفردى ، وإنما يمهد لهم سبيله ويذلل لهم عصيه طبيعة المشكلات التى تستقبلهم بها الظروف المطيفة بهم ، والأحوال العارضة لهم ، وفضلا عن ذلك فإن طوارىء العصر أو بوادر الأحوال هى التى تحمل الاختراع وتهمله أو تذيعه وتعلى

شأنه ، وتعمل على إصلاح عيوبه واستكمال نقصه .

ويرى ماركس أن أساس المجتمع قائم على إنتاج الوسائل التى تصون الحياة البشرية وتدفع عنها غوائل الحاجة ، وتوزيع هذا الإنتاج هو أساس انقسام المجتمع إلى طبقات ، والأسباب النهائية لكل التغيرات الاجتماعية والثورات السياسية لا يبحث عنها فى عقل الإنسان وطريقة اهتدائه إلى الحقائق الخالدة وإدراكه للعدالة وإنما فى تغير أساليب الإنتاج والمبادلة ، ولا تلتمس فى فلسفة العصر وإنما فى اقتصادياته ، فإذا أصبح باطلا ما كان يراه الناس حقاً ، وصار ظلماً ما كان يراه الناس عدلا ، فإنما سبب ذلك التغيرات الصامتة التى تطرأ على طرائق التوزيع والإنتاج وتجعلها منافرة للنظام الاجتماعى السائد الذى يرتكز على أسس اقتصادية قد غمرها التغيير ، وهذا التنافر الذى يؤدى إلى نسخ نظام المجتمع وتعديل أسسه ليس وليد الذهن أو سليل الرغبات الإنسانية ، وإنما مصدره الإنتاج ، وهو مسألة ليست مستقرة فى عقولنا وإنما هى قائمة خارج عقولنا ومستقلة عن إرادتنا وأعمالنا ، والاشتراكية الحديثة إن هى إلا انعكاس هذا الصراع فى العقول .

ومقومات الحياة الثقافية ، وخصائص المجتمع الأخلاقية

والدينية ، واتجاهاته القانونية والفنية جميعها فى رأى الشيوعية مشتقة من الأصول الاقتصادية ، وأدوار التاريخ المتعاقبة منشؤها صراع الطبقات ، وهذه الطبقات المتصارعة من نتاج الأحوال الاقتصادية .

وعلى هذا النمط من تحليل بناء المجتمع وعناصر تكوينه وتفسير التاريخ تقوم الأفكار الشيوعية ، وترتكز أسس المذهب ، ومن منابتها تتفرع فروعه وتطرد أحكامه .

ولأجل أن يحصل الانسان على القوت الذى يقيم أوده ويستحضر الثياب التى تقيه طوارىء الجو تعود أن يتناول المواد الخام ويحتال فيها حيلته ، ويعمل فيها فكره لتوافى حاجته وتفى بمطالبه وتشبع غرائزه ، ومن ثم تنشأ علاقة بين الإنسان وبين الأشياء ، وهذه العلاقة بضرورة الحال تتضمن كذلك العلاقة بين الانسان والإنسان ، لأن طبيعة تناول تلك المواد تستلزم التخصص وتوزيع العمل ، وعلى مدى الأيام ينهض فى آثار ذلك حقوق وامتيازات يدعيها بعض القوم لينفردوا باستغلال بعض الأشياء ويذودوا عنها الغير ، ومن هنا تنشأ الملكية من ناحية والحرمان من ناحية أخرى ، ويرى المالكون أن الأشخاص

المجردين من حقوق الملكية يمكن استخدامهم فى الاستغلال تحت إشرافهم ورقابتهم لقاء أجر زهيد يدفعونه لهم ، وقد نشأت من أساليب الاستغلال تلك الصور المختلفة فى معاملة الإنسان للانسان ونلمح من ذلك أن العلاقة بين الناس فى مختلف العصور قائمة على أسلوب تملك الأشياء وطريقة تناولها وصنعها ، وقد ظلت تلك العلاقة طوال العصور المنصرمة ثابتة فى جوهرها ، ومن جرائها انقسم المجتمع إلى فريقين كبيرين يتبادلان العداوة والبغضاء ، وعلاقة الاستغلال ولو أنها لم تتغير فى الجوهر ولكنها مع ذلك قد أخذت صوراً متعددة . ويميز كارل ماركس من بينها ثلاثة أنواع رئيسية حدثت فى تطور المجتمع التاريخى ، فهناك الاستغلال الذى اتخذ صورة الرق والاستعباد ، وهناك استغلال عهد الإقطاع ، وقد تلتهما صورة الاستغلال فى عهد الرأسمالية ، والاستغلال ظاهر الظهور كله فى الصورتين المتقدمتين سواء بعلاقة العبد بسيده أو الأمير الإقطاعى برعيته ، وفى العصر الرأسمالى ظلت العلاقة واحدة فى الجوهر ، ولكن يخفى أثرها ، ويلطف من وقعها ، بيع المنتجات لا استعمالها المباشر ووجود الوسطاء بين المنتج والمستهلك ، وذيوع الحرية السياسية ، وسريان

المبادىء الدمقراطية ، وتقدم الجماعات رهن بتغير العلاقة بين الإنسان والأشياء ، أو بلفظ آخر يتوقف تقدمها على الأسلوب الذى يتناول به الإنسان المواد الخام و يحيلها سلعاً تنهض بحاجته وتتكفل بمطالبه ، ومن آونة لأخرى تنبغ فى عالم الصناعة مستحدثات تستتبع صوراً جديدة فى المجتمع ، وكلما سمت الاختراعات فى معارج الرقى وكبر نصيب الناس من البراعة الصناعية واستفاضت المعرفة واستنارت الأفكار استلزم ذلك صوراً جديدة للنظام الاقتصادى .

وسنن الآداب ، وقواعد السلوك ، وشرائع القوانين فى مختلف المجتمعات تنم على حقيقة النظام الاقتصادى السائد لأنها نشأت تبعاً لحاجات الطبقة المتحكمة المستغلة ، وهى ترمى من ورائها إلى تحبيذ العلاقة الخاصة بين الطبقتين ، وتسويغ استغلال إحدى الطبقتين للطبقة الأخرى ، وجميع النظم السياسية ومذاهب التشريع مرتبطة بالنظام الاقتصادى ، فهى ثمرته ومرآته معاً . وقد كانت العبودية مباحة ومعترفاً بها فى المجتمعات التى كانت تستغل العبيد ، ومن ثم يرى ماركس أن ركون الطبقات المستَغَلّة

إلى التماس الحق ، وتعويلها على نشدان العدالة أمر لا غناء فيه ولا رجاء فى مخايله ، لأن تلك العدالة المنشودة قائمة على افتراض صحة النظام الذى يثورون به ويخرجون على ممثليه ، وليس هناك عدل مطلق ولا حق مجرد — كما يرى ماركس — وإنما هناك معايير للحق، وتصورات للعدالة ، ومن بين تلك المعايير والتصورات ما يسوغ وجهاً خاصاً من وجوه التقدم الاقتصادى ، ويرى صلاحه ، ومطابقته للحق ومسايرته للعدالة

ويقف الشيوعيون من الدين موقفاً بعيداً عن الإعجاب والتقدير ، بل هم لا يحجمون عن مقاومته وشن الغارة عليه والعمل على تقويضه لأنه فى عرفهم ضرب من ضروب المخدرات التى تراخى العزيمة ، وتثلم النشاط ، وتغرى بالزهادة والاستسلام ، وهم يرون أن الطبقات المتمولة قد اتخذت الدين وسيلة من وسائلها التى تستعين بها على حشد عقول الطبقات الفقيرة بالأوهام والخرافات لتصرفها عن مجابهة الحقائق ، وإدراك ما ينصب لها من الاشراك وما يحاك لها من الدسائس ، ويسترعى الشيوعيون النظر إلى ما ورد فى الكتب المقدسة عن تحبيذ القناعة ومدح التواضع والخشوع وذم الكبرياء والجبروت

ونظر الشيوعيين إلى الآداب والفنون وسائر ألوان الحياة الفكرية متأثر بمذهبهم فى الاقتصاد ، والأدب عندهم لا ينظر إليه منفصلاً عن السياسة والاقتصاد ، لأن الأدب الحق فى زعمهم هو الذى يزيد الحياة قوة ، ولما كانت حياة الإنسان ممتزجة بحياة المجتمع ، كما أن تقوية الحياة تتطلب تسهيل توزيع النشاط الإنسانى بحيث يثمر ثمرته المرجوة ولا يذهب عبثاً لذلك يرى الشيوعيون أن الأدب الذى ينمو عالقاً بأغصان وفروع شجرة الرأسمالية نمواً فضولياً هو أدب قليل المنفعة زهيد القيمة ، والأدب الجيد هو الذى يدعو إلى زيادة الإنتاج الإنسانى ، ويعاون العناصر التى تعمل لتحقيق ذلك ، فمادته إذن الدعاية ، ودعايته متجهة إلى محاولة التغيير المبدع الخالق ، وقيمة أدب الماضى هى فى أنه يقدم لنا صوراً أمينة للظروف الماضية وأحوال الطبقات فى العصور الخوالى ، والأدب فى العصر الحاضر يجب أن يعين على احداث الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهم يؤثرون الأدب القريب من لغة الشعب وتصوراته ، ولا يرتضون الروايات التى تدور حول حياة الأفراد ، وإنما يفضلون الروايات التى تصف صراع الطبقات لأنها تمهد سبيل التقدم نحو الاشتراكية

ويرى الشيوعيون أن الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية لا يتم بالطرق السلمية ، ولا مناص فيه من اصطناع الشدة واستعمال العنف والقهر ، وذلك لأن النظم السياسية والقانونية والأدبية القائمة على أساس اقتصادى خاص تولد فى النفوس الرغبة فى الدفاع عنها والاستبسال فى سبيلها ، حتى عندما يكون ذلك الأساس الاقتصادى قد آذن بالسقوط وأشرف على الزوال ، وكل نظام سياسى قد منح طبقة خاصة حقوقا تحرص عليها وتستمسك بها لا يمكن تبديله دون الاستهداف لمقاومة الطبقة المستمتعة بامتيازاته والمحتكرة لخيراته ، وهى تحاول أن تقنع الناس ، من طريق إشرافها على تربية النشء ، بأن النظام الراهن كفيل بتحقيق العدالة ، وأن الخير فى بقائه وحياطته ، وهكذا يبقى النظام السياسى جامداً فى حين أن الاختراعات الحديثة فى عالم الإنتاج قد جعلت الحاجة إلى تغييره شديدة ملحة ، ويقع فى روع الطبقات الفقيرة أن وسائل الإقناع وأساليب الدمقراطية غير شافية ولا مقنعة وأنها مضطرة إلى إحداث الانقلاب بالقوة والصدام .

ويرد الشيوعيون الحرب الكبرى السابقة إلى أسباب اقتصادية ،

وذلك إن قوى الإنتاج كانت فى تقدم مستمر وزيادة مطردة ، فى حين أن النظام الاجتماعى الراهن ظل بغير تعديل ، وترتب على ذلك أن أثمان السلع ارتفعت إلى ثمن لا يمكن المجتمع من استيعابها جميعها ، فاشتدت من جراء ذلك الحاجة إلى المنافسة لفتح أسواق جديدة تحت ستار الاستعمار وأنتج ذلك الحرب .

وظهور قوة الطبقات الفقيرة له نظائر فى التاريخ لأن كل طبقة استأثرت بالنفوذ استدعى وجودها ظهور طبقة مناوئة لها ، وهذه الطبقة تزحزحها فى النهاية عن مكانتها وتغتصب نفوذها ، ولكن اشتداد قوة الفقراء فى العصر الحديث طراز فريد من الحركات الاجتماعية لأن نزاع الطبقات فى العصور السالفة كان ينتهى بتغلب طبقة على طبقة ، وأما انتصار طبقة الفقراء فى العصر الحديث فانها ستؤدى إلى خلاص الإنسانية وتقضى على الطبقات ، وهذا هو مصدر قوة العقيدة الشيوعية ، لأن أنصارها لا يعملون لتغليب طائفة ، وإنما يعملون لتحرير الانسانية ، ويشعل هذا الاعتقاد حماستهم ويبعث فى نفوسهم حب التضحية والتفانى فى التبشير بالمبدإ وتدعيم العقيدة .

ويرى الشيوعيون أن تحرير الانسانية والغاء الطبقات وإزالة

الفوارق الاجتماعية يستلزم فترة تمهيدية تستولى خلالها على أعنة الحكم ديكتاتورية جريئة لا تحجم عن استعمال القسوة والإرهاب توطيداً لمكانتها ودفاعا عن حوزتها ، ومتى استقرت الأحوال وزال الخطر بطلت وظيفة الحكومة وانتهت مهمة الديكتاتورية .

ويشك الشيوعيون فى نجاح الدمقراطية لأنها فى عهد الرأسمالية لا يمكن إلا أن تكون خيالا لا حقيقة له ، وما دامت أكثرية الناس من الطبقات الفقيرة التى لا تملك شيئاً فمن العبث الكلام عن الحرية الفردية ، أو قدرة الفرد على التأثير فى نظام المجتمع الذى يعيش فيه ، ولا حرية لمن لا يمتلك شيئاً ، ومهما تكن الحكومة دمقراطية فإن النفوذ سيظل فى يد المسيطرين على القوى الاقتصادية لاستيلائهم على وسائل الإنتاج الصناعى ، ولا نزاع فى أنه مما يبعث الارتياح والسرور أن يباح للانسان حرية النقد والمناقشة ، ولكن الذين لا يتغذون تغذية صالحة أو يرهقهم العمل المضنى لا يرون فى حق الاستمتاع بالنقد سوى نوع من الترف لاقبل لهم به ولا رغبة لهم فى تذوقه لأنهم أحوج إلى ملء بطونهم منهم إلى تحريك السنتهم ، وما دام

ينقصهم القوت فهم زاهدون فى الحرية ، وحرية التفكير ، أو حرية المناقشة والبحث والتعبير عن الرأى هى أنفس ذخائر الدمقراطية ، وأسطع آياتها ، ولكن الشيوعيين يشكّون فى وجودها ، وينكرون قيمتها ، وهم يرون أن الرأسمالية إذا اشتدت بها الأزمة ، وعضتها الحاجة فإنها لا تتردد فى إلغاء هذه الحرية الوهمية ، وتظهر على حقيقتها سافرة غير متوارية ، ويضربون لذلك مثل الفاشية فى إيطاليا والنازية فى المانيا . والشيوعية فى نظرهم هى وسيلة إنقاذ الحضارة فى هذا العصر المضطرب الجائش لأن الرأسمالية ستظل فى كفاح عنيف ، وتظل دولها يصارع بعضها بعضا صراعا ينذر بأسوإ النتائج ويقوض الحضارة ويعصف بثمراتها .

ولعل أقوى نقد يوجه إلى الشيوعية هو قيامها على طريقة هجل الجدلية ، لأن هذه الطريقة صحيحة من ناحية المنطق وما وراء الطبيعة ، ولكن تطبيقها العملى على الشؤون الدنيوية ، والحوادث التاريخية لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والإساءة إلى التاريخ ، وعندما نعرض حوادث التاريخ نرى أنها لا تطابق تمام المطابقة الأسلوب الجدلى الذى يقول به هجل ، والتاريخ

مزيج من الضرورة والحرية ، والنظام والمصادفة ، والعوامل العامة الأساسية وكذلك الحوادث التافهة الزهيدة ، وتياراته مختلفة ، وعواصفه كثيرة ، فالطموح له أثره فى توجيه التاريخ وكذلك الدسائس والغيرة والمسائل الجنسية والحماسة الدينية والهوسة المثالية ولا يمكن تجاهل أثر الأفراد البارزين الذين نسميهم « أبطال التاريخ » ، وإخضاع التاريخ لعامل واحد يقتضى تجاهل الكثير من حقائقه والالتواء فى تفسير حركاته ، وشؤون الحياة الانسانية ليست جميعها خاضعة للمنطق مترسمة لخطواته ، ولها ظلال مختلفة ، وملابسات كثيرة ، وتاريخ الإنسانية يتوقف على كثير من المصادفات التى لو تغير بعضها لتغيرت قصة التاريخ واختلف سير الزمان ، ومسألة تنازل الديكتاتورية التى تنشأ عقب الثورة الشيوعية عن امتيازاتها وسلطتها أمر غير منظور ، ومن الصعب التسليم به والاعتقاد بصحته .